من ملحمة الرحيل ...*

قصيدة للأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي

ألي في هوًى أرجوهُ نفحةُ واصلِ ... ومــن أين لي مالا أُطيق امتلاكه

وهل أبتغي في الخَطْب نفحةَ نائلِ ... ملاذاً بَيمٌ لستُ فيه بساحـــل ؟

معاذَ الهــوى لم أبغه غير حاجةٍ

ظللتُ أرجّيهــا جوابًــا لسائــل

أفي رَحِــمٍ جذّاء بــتّ مــرزَّءًا

وقد بُتَّ عن عِرقٍ مدى العمر واصل

مضَى الشمل واعتاصت بهم سُبُل النوى

وأوحش في أهلٍ ضياع المجاهــل

إلى أيــن ، للــدار التي حيزَ خيرها

إلى الوارش الموبوء في ذلّ باطل ؟

ومن أين، من أخرى تقبّض ظِلّهــا؟

فليس به شِبْرٌ يُعــافُ لواغـــل

أرى صحبيَ الأدْنَيْن شــالت نَعامــةٌ

بهم فاستبيحوا للدواهي الغوائــل

أعِنّي على طـــلٍّ تعـــذّر أمـــره

فكيف أُرجّي بعده صَوْبَ وابل ؟

وهَبْني أخــا خطبٍ بفطنة حابــلٍ

ولم يكُ من حَبْلَى شجون حبائــل

ولسْتُ بمجــدودٍ تصــدّى لأمـــره

ببعض مُعينٍ أبْلَج الوجه نــابــل

* * *

أخا العصر،هل لي أن أرى في سماحة

وصالَ مُحِبٍّ حافظِ الودِّ حامــلِ ؟

لقد حيلَ ما بيني وبين صناعتي

وهل لي أن أجتازَ بعضَ الحوائلِ ؟

وقلتَ : أما تُدلي بدلوك قاصدًا

لجائزةٍ حيزت لبعض الأجــادلِ ؟

فقلتُ : أفِقْ عن غيِّ ساهٍ مُضَيَّعٍ

وخذْ حَذَراً مما أُرِيــدَ لخامــلِ

فتلك التي يسعى لها كلُّ سابحٍ

لسلعة ما يحظى بها كلُّ جاهـــلِ

جوائز قد حيكت ، وقد طار طائر

إلى حيث يُلفَى في حِبالة خاتــل

أضاليلُ لا ندري مجال سباقها

وكم يُطَّبَى للسبق غيرُ المناضـــلِ

حداثةُ عصرٍ لستَ تعلمُ كُنْهَا

ترامَى إليها كلُّ أخرقَ ناصـــلِ

---

* ألقيت هذه القصيدة في الجلسة التاسعة من مؤتمر الدورة الخامسة والستين يوم الاثنين ٢٧ من ذى القعـدة سنة ١٤١٩هـ الموافق ١٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٩م

هل الفنُّ إلاّ لعبةٌ لا يُرَى لها
سوى كلِّ منبوزٍ بإعياء باقـــلِ
وأيــن البليغ السمح في كلماتـــــه
بما كان فيها بعضُ سَحْبانَ وائلِ ؟
على عصرِنـــــا فليَبْكِهِ كلُّ ثاكـلِ
ويرثي الذي نشقى به كلُّ فاضل
أخي لستَ تدري مـــن حديثيَ جُلَّه
وما أنا عن شيءٍ به خيرُ ناقـــلِ
خلــوتُ لنفسي أستعيد شُجُــونَهـــا
ولم أستفدْ ممّا خلوتُ بطائـــــلِ
ولي في ابتعادي عن "غثاء" المنازل
تجــاربُ ممّا نلتُه في المحافـــلِ
فما أنا من أمري بـــــذروة منصبٍ
وغـــــاربه الأدنى إليه، بفاتـــل
أجِمتُ التي قد لاكَها كلُّ مـــاضِغٍ
وكم عِفتُ ما قد كان لُهْنَة آكلِ
تَناءَيتُ عـــــن طَـــرْقٍ تغيَّر رَنْقُه
إلى غيرِ هذا من كريمِ المناهـــلِ

* * *

أخا العصر ، إنّ العصر في ظُلُماتِهِ
فكيف أرى في عاجلٍ نورَ آجلِ ؟

وكيف أرى في آخرِ الليـــــل قادمًا
ليبدأ " قرنًا ثالثًا " بالرذائـــــل ؟
أيُزرَع فينـــا غامرٌ بـــــانَ خُبثهُ
ليحصد منّا عامـــرًا في سنابـــل ؟
ويُسألُ أهلونا ، وأين لقاؤهـــــم :
متى سَيُنيُر الليلَّ ضوءُ المشاعِـــلِ ؟
وقالوا لنا في الأمـــر " عَوْلَمُ " أُمّةٍ
إلى أُمَمٍ بتَّتْ حبـــال القبائـــــلِ
أقِلْنيَ عـــــذرًا إنْ جهلتُ جديَدنـــا
" بَعْولَمةٍ " حيزَتْ لشتّى المقاتـــل
أليسَ بحـــقٍّ إنْ تشـــــاءمَ ذو حجًى
وأيــن أنـــا من حكمة المتفائلِ ؟
أنِلْني بيانًا إنْ تداعَتْ خواطـــــري
يكونُ جوابًا عن شُجُونِ مسائلي
لقد طرقَتْنا الحادثاتُ فـــــلاَحَ في
دُجَى الليلِ لمحٌ من وجـــود دلائلِ
أفَدتُـــكَ أنّي لستُ أدرِكُ " عَوْلمًا "
و" عَوْلَمةً " يقسو بها قـــولُ قائلِ
وقد كان لي من ذاك في بعض "تَوفَل"
كثير النُّثا سَمْح الجدا والنوافـــل
وقـــد أتلَقَّى في مسيريَ "كوثـــرًا "
يهمُّ إليه كلُّ صدَيـــان نـــاهلِ

وقد كان لي في " حَومَلِ " وهو مشعر
"بسقط اللوى" بين الدَّخول لداخل
مَناسكُ لم أبرح أُصاب بسحرهـــا
فلا أنــتَ تدري بعدها سحرَ بابلِ
إذا كـــان لي هــذا فكيف أُديره
" لعَوْلَمــةٍ " راحت بدَأبيَ شاغلي
وكيف أراني عند "خَصْخَصةٍ " شدا
بها كلُّ مفتون "بغربٍ " مطــاولِ
وأخرى عرفتُ الضيمَ فيها وإنّهــا
" تخاصية " يسطو بها غير فاعــلِ
ولستُ أراني عند " خوصصةٍ " مشى
بها ذو هوًى في "مغربٍ" غير حافل
أخي بعضَ عذرٍ إن تجاوزتُ مجلسي
ورُحتُ إلى جدٍّ من الخطب نازل
عرفتُ بــه أن المصيبـــة محنـــةٌ
وأنّا امتُحِنّا في شـــرور النوازل

* * *

" تقول التي من بيتها خفَّ محملي " :
إلى أين تسعى في حديث الأوائــل؟
إلى أين تسعى في ديـــار تضاءلت؟
وقــد صيحَ في ربعٍ بها متضائــل

إلى أين ؟ لا تلك الديـــــار سخيّة
وهُنّ ، وقد أَلْوَيْنَ ، غير أواهـــل
إلى أين تسعَى لستَ في ميعة الضحى
وما أنت في ضافٍ من العمر رافلِ؟
أللــدارس الماضي القـــديم بخيره
ولم يَخْلُ من شرٍّ بغيض الطوائــل
تَحمَّـــلَه أسلافُنـــا بَرويّـــةٍ
وفاتـــوا ولم نلقَ المصير بطائــل
كأني بك المفتون في غير معشــرٍ
عدَلتَ بهم عن حاضر غير آمــل
وما أنت فيهم لو سمعت ضجيجهم
وجَعْجعةً لا طِحْن فيها لبـــاذل
" فدَع عنك نَهْباً صِــيح في حجَراتــه
ولكنْ حديثًا ما حديث الدواحل "
كأنّك تستهدي القـــــرون برحلةٍ
وحُمِّلتَ ما حُمِّلْتَ زادًا لراحــل
طويتَ بها طيّ السِجلِّ أشابـــــةً
من الكُتُب اللائي تُرِكنَ لعامــل .
حَمَلتَ بما تسعَى ركـــازاً تجمَّعَت
به صفوة يغنَى بها كل عاقـــــل
وقلتَ ، وأنتَ البَرُّ نحــو أرومــة:
متى نتأسَّى بالعظام البواســـل؟

متى نتأسَّى " بابن إدريس " قائلاً :

لنـــا لغة للعارفين الفطاحـــلِ؟
لكـــلٍّ عظيمٍ بـــل نبيٍّ بعلمِهِ
وخذ أنتَ ما يسعى له كلُّ كاملِ

* * *

لكَ الله من عصر تَسلَّح أهلُـــهُ
بكل خبيثٍ للمكـــارم قاتـل
فلم تبقَ فينـــا مُنّةٌ نحتمي بها
لنرأب مما أحدثوا بالمعـــاول
فكيف أجيء اليـــوم أسمع لاغطًا
وماذا بشيء فاقد اللون حائـــل
وهـــل لك في لحـــنٍ تعثَّر سيرُه
وصار إلى نَخْبٍ عن الحقّ مائلِ
وماذا ، وأنت المبتغي مـــن وسيلةٍ
أطيح بها فاستُبعِدَت في الوسائـــل
ولستَ بهـــذا تنتهـــي لمحجّـــةٍ
نأت بسخيفٍ من مُحالٍ وزائـــل

* * *

أقول : وقد تابعتُ قـــول حليلتي
وقد كان لي منه جهاد الحلائـــل
تحدّت معي كلّ الصعـــاب حفيّةً
بما عرفت بين النســـاء الأصائل
وكانت مُعيني وقتَ ضعفي وعُدَّتي
متى عرضت لي واقشَعَرَّتْ مراحلي
وقلتُ لها : إني بما كان من جوًى
لما أنا من أُمّ اللغات الفواضـــل
وما رحتُ في دأبي وجِدِّيَ قاصدًا
ومُستقريًا آثار تلك المنـــازلِ
لَيَعطِفُني للدارِ أهـــل ومَرحب
فقدتُ بهم مـــا كان من زَيْن نائلي
ويَحزُنني إخوانُ صِدقٍ تركتُهُمْ
فلم يُغنني شيئًا بريدُ رسائـــلي
وأذكر أنّي قـد تَلَفَّتُ مُرســـلاً
إلى الدار عيني والحِمَى والخمائـل
أبثُّكِ أنّي قـــد تبـدَّلتُ غربـة
حُمِلتُ عليها لستُ عنها بنا كـل
أُدَمْتُ مطال الخطب والخطب غصّةٌ
وقد زادني منها غيابُ المماثـــل
وقد نـــال مني أنني ذو حماســـةٍ
بمعتَركٍ ألقَـــى نـــزاع المشاكـــل
فقدتُ سلاحي هِمَّـــةً أحتمي بها
وكيف بواهٍ متعَب القلب فاشـــلِ؟
وإنّي إلى أخـــــرى ليـــاليَّ راحلٌ
وأحسب أن قد لاحَ صِدقُ المخايلِ

* * *

أذمُّ النوى ، ويحَ النوى ، قُتِل النوى ... تطلَّبتُها نجـــــوَى فواتَتْ بحافــلِ
سعَى فيه ذو خَطبٍ بزُغْب الحواصلِ ... ولم أرَ فيها ذاتَ طوقٍ لزاجـــلِ
وضيمَ بـــــه ذو عَوْلةٍ أيَّ عائــل ... فدَعْ عنك نقدًا صيغ في نَزَواتـــه
وكم غيــل ذو بأسٍ بنُهزةِ غائــلِ ... ولم أكُ عمّا قد ظُلمتُ بغافـــلِ
فطوبَى لمدفوعين في التيه هالهــم ... أُخِذنا بعصرٍ ضَامَ في شَطَحاتــه
من القَدَر الساعي أيُّ هائـــــلِ ... جموعًا ترامَت من عليٍّ وسافــلِ
وطوبَى لمنزوعين عن أمّــةٍ مشت ... وهل يستوي ذو مَسكةٍ ونقيضه؟
إلى أُختِها لم تستفد من حمائـــلِ ... وكم كــان من هذا لِحافٍ وناعل
نسينا الذي قد كان من حُرُماتنا ... وكم أتوقَّى سوء قــولٍ لقائــل
وكُنّ مصونات الحمى والدخائلِ ... وما كان من هَمْزٍ ولمْزٍ لعــاذل

* * *

ظَلَمتُ القوافي سُمتُها غيرَ ذي هوًى ... إبراهيم السامرائي
ولا أنا منها في حماسة باســـلِ ... عضو المجمع من العراق